

فجي بلاد الرومي

قد تكذب على نفسك بالقول إنك قصدت زيارة مدينة قونيا التركية، عاصمة التصوف المولوي وفي موسم «شابي عروس» لمجرد الفضول. لكنك ستكتشف سريعاً، برغم كل سخريتك من مظاهر «الفولكلور الرومي»، أنك هنا أيضاً، في الحقيقة، من أجل رجاى آخر. المشاعر المختلطة التي تخرج بها من رحلتك تلك الى عالم التصوف اليوم، وهو عالم يبدو أنه يعود الى سطح الحياة الروحية والاجتماعية في عالمنا اليوم، تبدو متضاربة لك قبل الآخريين. تدافع عن نفسك أولاً بوضع مسافة بينك وبين المناسبة، فتصبح سائحاً. وقد قدّمنا أمس رواية السائح عن الرحلة. لكن، إن أحسست بنفسك تنزلق للتعمق أكثر في ما تراه، ستجفك وتتسلح بنظرة التشكيك. فإن كان يقين بعد ذلك؟ فالشك افضل الطرق إليه، وإن لم يكن؟ سيكيفك من الطريق، أسلتها وصحبة أهلها وهذه الرواية



مريدون ومشككون في حضرة مولانا [2]

لجهة القلب وتكرار كلمة واحدة هي «هو». ثم تسارع الإيقاع وتسارع الـ «هو» وأخذ يتصاعد شيئاً فشيئاً. وإن بإحداهن تكاد تغيب عن الوعي فتسحبها سيدة خارج القاعة لتسقيها الماء ويعود لها وعيها. أسألها: لم سحبتها ولم تتركها لنشوتها؟ فتقول بما معناها «لأنها ترزع الأخرين». أكمل الآخرون ساعة ربما، على الإيقاع نفسه، ولما بلغ الذكر نهايته جلسوا إلا واحداً، بدأ في نشوة لاهثة مرّداً «هو/هو/هو» وقد احمر وجهه وتصبّب عرقاً. برفق، يحيط به رفاقه ويمسحون وجهه بالماء فيفتح عينين قد احمرتا وامتلأتا بالدموع ونظر حوله كمن أفاق للتو.

خارج القاعة، كانت النساء يعددن طاولة عشاء خفيف، توزع بين أطباق من الرز بالحليب، التي توزع أيضاً في عاشروراء. فالذكر، وهو خليط من الآيات والأناشيد تمدح كلها أهل البيت والإمامين الحسن والحسين وخاصة الإمام علي والنبي المصطفى. لم أفهم: أسأل «أور»: «الستم من أهل السنة؟» يجيب بنعم. فأسأله إن كنتم تمدحون أهل البيت وتكون لذكر كربلاء وتقولون عن الإمام علي إنه باب المعرفة، فما هو إذاً خلاصكم مع الشيعة؟ يفكر أور قليلاً ثم يقول: «الشيعة لا يسلمون باليد».

رواية المريد

حين جاء يوم «شابي عروس»، كان قد ازدحم أمام بوابة متحف (ومقام) مولانا جلال الدين الرومي، خلق كثير. الناس كانوا يخاطبون بلغات كثيرة: فارسي على تركي على عربي على إنكليزي على ليتواني على روسي... كان «خلق الله» كلهم كانوا هناك.

حين وصلت الى المدخل (الدخول مجاني) شققت طريقي بصعوبة الى

الأمرة النهائية. لكن، لم ليس هناك من شيخات للطرق الصوفية؟ لم الإقتصار على الذكور؟ تقول صديقتي التي سبقتني الى هنا إن النساء الشيوخات والمتدروشات كثيرات لكنهن لا يظهرن كما الرجال! لم أصدقها. فقد بدت كما المؤمنات الكلاسيكيات المدافعات مثلاً عن مقولة إن الأديان حرّرت المرأة! سرعان ما تمتلئ القاعة بالمريدين، فتتكوم الأذى خارجها. ينقسم النساء والرجال كل في جهة من القاعة ذاتها، تنوسطهم فرقة المنشدتين والشيوخ: شخص على الناي وآخرون بالدفوف الكبيرة وشاب بدأ عربياً معه عود... أما الشيخ فتوسط الجميع وبدأ بقراءة القرآن.

كنت أعلم أنه تأدياً علي أن أعطي شعري كما فعلت النسوة الحاضرات. لكني فضلت الانتظار لأتأكد من قول «أيكوت» إنني أستطيع البقاء سافرة. كنت أنتظر. من يا ترى سيحتني على ذلك؟ لم تتأخر إحدى السيدات خلفي عن الإيماء لي بوجوب تغطية رأسي. جنديبات القمع هن النساء إذاً؟ لم أكن أشك في ذلك. فهذه هي الطريقة الوحيدة ليكن حرّات بعض الشيء في هذا المجتمع الذكوري. أي أن يكن حارسات النظام.

بدأ الإنشاد والغناء تارة بالعربية و«تارات» (لو جازت) بالتركية. ثم دخل أحدهم وسط الحلقة وبدأ بالدوران على الطريقة المولوية التي اخترعها صاحب المناسبة جلال الدين الرومي وتوأم روحه وحبيبه شمس التبريزي.

ضاحت القاعة ووقف الجميع نساء ورجالاً متراضين تقريباً كل في جهته. كان الشيخ قد بدأ هو الآخر بالدوران وسط الحلقة، في حين كان الأتباع ووقفاً يقومون بحركة واحدة هي خبط الكف الأيمن على الصدر

تدوم لألف ليلة وليلة، يقوم خلالها بثمانية عشر نوعاً من الخدمة، قبل أن يُقبل في الطريقة ويصبح درويشاً أو يُصرف لحال سبيله. ياخذنا الحديث فيدعوني الشباب الى حلقة ذكر مساء في فندق قريب في حضور شيخ الطريقة الرفاعية. في الفندق المتواضع بدوره تواضع نزلاته، نصعد الى قاعة كبيرة نسبية أخلبت من الطاولات والكراسي وفرشت أرضها بالسجاد حتى لم يبق منها أي شيء ظاهر، يتوافد المريدون وأتباع الطريقة نساء ورجالاً. آه! ها هي السيدة الستينية الجميلة التي كنت قد رأيته في الفندق تُفد الى القاعة مع بضع نساء ريفيات، يبدو أنها

بشّ الرجل للجميع وسحب كرسياً ليجلس السيدة، ثم تراجع كما يتراجع الخادم، ليقف على مقربة متأهبا لتلبية أي إشارة. ها هو يملأ أكواب الشاي أو يجلب الماء لمن يريد. كان يقوم بكل شيء بإتقان وورع والابتسام لا تفارق ثغره. لم يكن نادلاً، لا شك في ذلك من هو؟ أسأل «أيكوت» الذي سبق أن تعرفت إليه، كونه يتكلم بعض الإنكليزية، فيبتسم ولا يجيب. ثم يميل إلي ويهمس «أخبرك لاحقاً». طبعاً فهمت بعد ذلك أن الرجل/الخادم هو في الحقيقة «مريد» في الطريقة الرفاعية مع أن عمره جاوز الأربعين. لذا فهو يؤدي الأعمال المطلوبة من التلميذ في أولى المراتب، وهي أعمال

قونيا - ضحك شمس

على مائدة فطور الصباح في الفندق المتواضع، وقف رجل «مشورب»، بدا وكأنه كان يعدّ طاولة الإفطار لحوالي عشرة أشخاص. يقف الرجل يقشر البيض المسلوق بورع تقريباً. يضع في كل صحن ويكل تان بيضة مقشرة. لم يكتف بذلك، بل طفق يقشر مثلثات الجبنة ويضع في كل صحن واحدة. قلت في نفسي ربما يعدّ الفطور لأولاده. لكنني فوجئت حين فُتح باب المصعد لتفد منه مجموعة رجال ونساء تتصدرهم سيدة في ستينياتها، بشرتها البيضاء مشربة بالحمرة وعيناها الزرقاوان تشيان بأصول سلافية.

